

# الفصحى والعامية

## بين قوميته والثقافة ومجتمعاتها

بقلم الدكتور عبد الله الطيب

فاية أمة في ذلك العهد كانت تملك من وسائل نشر العلم ومنهجه مثل الذي انتشرت به قراءة المصحف حتى قد احتيج الى انلاف ما أنلف منه في ذلك المدى القصير .

ان العرب لم يكونوا مقصوري طلب العلم على طبقة كنسية او كهنوتية او لاهوتية كالذي كانت تفعله الامم الاخرى . وقد كان عليهم المستند من الرواية تدعمه طريقة من الكتابة تيسر انتقاله وتكفل لسه سلامة الحفظ بأقصى ما يستطاع . وكانوا يكتبون على مواد هينة المتناول كالعصب والالواح والكتوف وكان حبرهم من الصمغ وسكن الانافي ومحروق الشام . وكانوا يحفظون ما يكتبون ويمحونه ليكتبوا مكانه سواء فيحفظونه . بهذه الطريقة درسوا القرآن وما أسروه من شوارد لغتهم وروائع بيانها . وقد اعطى هذا المنهج الاعرابي منهم الاشعث الاغبر ذا القلوص مدرسة منتقلة لم يكن دهاقين الفرس وبطارق الروم واباطرتهم يقدرون على شيء مثلها . ولعل المسافر الان في اقاليم الصحراء الكبرى بافريقيا ان يرى صورة تشبه شيئا ما بعض ما كان عليه أوائل العرب في منظر علماء اصحاب القوافل المستظلين تحت الشجر المسندي الواحهم الى اقتاد رواحلهم يقرأون او يكتبون . ولا بأس ههنا من الاستطراد للتشبيه على ان العرب حين غزوا فارس والروم لم يكونوا دونهما فكرا وحضارة كما يزعم بعض من قد يؤرخ لهم الآن من الاساتذة ، بل كانوا أرقى منهما . وقد كان العرب بدوا وحضرا ، فاهل الحضارة منهم كانوا على علم واسع بأحوال من كانوا حولهم فكانوا ربما سخروا من قلة معرفة البسود بنحو هذا من خبر الدنيا . فيخطيء من يستنتج من هذا ان العرب قد كانوا كلهم جهلة محدودي الافاق . ثم ان تلاحم بدو العرب بحضرتهم اعطاهم من الحيوية والمثانة ما كان مفقودا عند مجاورتهم وهذا مكنهم من التفوق الباهر عليهم في ميداني الفكر والقتال .

هذا واللهجات التي غلبتها الفصيحة المختارة لم تمت ولكن بقيت هي لسان الاقاليم يشهد بذلك مثلا نحو ما روي من خبر رجز جند الحصين بن نمير :

يا بن الزبير طالا عصيكا

لا بل يبدو انه قد كان من اللهجات العامية الموزلة في الاقليمية وما بمجراها من المحلية لهجات فصيحة شبه عامية - للذي يخالطها من عفوية الاداء وسرعته مثل ما رواه ابن جني من مقالة الاعرابية « آفي السوتنتنة » أي « آفي السواة أنتنه » . وما رواه سيبويه من نحو فلي في فعل وردن في رددن وأمثال استمريرت في استمررت

اللغة العربية الفصحى لسان مشترك بين سائر العرب فسي مختلف اقاليمهم وعلى مختلف عصورهم . واللغة العامية شيء اقليمي . وربما تباعد ما بين اللهجات العامية في اقطار العربية المختلفة تباعدا يصير معه التفاهم . ومع هذا ليس اليون بين كل منها على حدته واللسان الفصحى بالبعيد الشاسع الذي يقال معه ان الاختلاف جوهرى كالذي يكون بين اللغتين المستقلتين . ومن أجل هذه الصلة الواشجة بين كل عامية على حدتها وبين اللغة العربية الفصحى نجد من الممكن هذه الايام ان تفاهم بلسان وسط بين العامية والفصحى شبه مشترك بين سائر اقطار العربية ولا سيما من طريق المذابغ وفي لقاءات المؤتمرات وما أشبهها . على ان هذا اللسان الوسط شبه المشترك في حالة تغير مستمر ، وهو اقرب الى ان يكون صنفا من اللغة الفصحى المسرع بها في أداء الكلام المتحدث به من غير ما تأت الى تجويد الاعراب .

والحق ان اللغة العربية قد كانت في دهرها القديم الاول لهجات مختلفات منهن القصي جدا عما تواضع عليه اهل الفصاحة من بعد وجملوه لسانهم الفصحى كقول الآخر :

يا بن الزبير طالا عصيكا

وكاصناف ما روي من الكسكسة والكشكشة مما أطرح اطراحا ولم يعد بفصيح . وفي اخبار القدماء ما يدل على ان اللحن كان قد يقع ويتعمد تحاشيه على نوع من تكلف واجتهاد . وفي كتاب « الامالي » ان سيدنا عمر رضي الله عنه عاب فتية على لحنهم لما رآهم يخطنون الرمي فسألهم فقالوا نحن متعلمين . وقد جاء في الاثر ما ينبىء عن ان اللحن كان يقع بين طبقات الفصحاء في الجاهلية ، ولا ريب ان اللغة العربية الفصحى التي نظم بها امرؤ القيس والجاهليون انما نشأت من بعد طول اختيار بين طبقات الفصحاء الذين كانت تجمعهم مواسم الحج والاسواق . وانا أسمى هذا بطور العربية البطولي اذ قد أقدمت فيه على اختراع أساليبها الجزلة من اصناف لهجاتها المتباينات .

وقد نزل القرآن باللسان الفصحى المختار وصارت اللغة العربية الفصحى لسان حضارة الانسانية الكبرى في ذلك الزمان واستوعبت علوم الامم . واتيح للعرب حينئذ من طرق التعليم ما تفوقوا به على جيرانهم من الامم التي ما كان تفوقهم عليها بالسيف والعقيدة فحسب . ولقد نعلم ان سيدنا عثمان رضي الله عنه قد أمر بانلاف المصاحف بعد ان تمت كتابة المصحف الامام على الحرف الذي وقع عليه الاجماع .

وفلمتية في فعلته .

هذا وعسى ألا يغلو الداعون الى استعمال اللهجات العامية من نوع قياس فاسد اذ كانهم يشبهون العربية الفصحى المشتركة بيننا الآن باللاتينية التي كانت مشتركة بين شعوب أوروبا واذ قد تخلصت شعوب أوروبا من اللاتينية فكذلك يحسن بنا نحن مقلديها ان نتخلص من الفصحى . والحق ان لغات أوروبا شيء عن اللاتينية مختلف ، كاختلاف الفارسية والنبطية والتركية عن العربية . وقد كانت اللاتينية لسان العلم في المجر وفنلندا وكناتهما لفتها تركية الاصل . وما بين الالمانية واللاتينية بعيد على ان اصولهما « اندوجرمانية » على حد تعبيرهما كما ان السذي بين النبطية والعربية يعتمد على ان اصلهما سامي .

الوجه الآخر تشبه اللهجات العامية بلهجات اللغات العامية التي بأوروبا والامريكا المستعملة مع اللغات المثقفة - كالكوني واصناف لهجات أمريكا ولهجات شمالي إنجلترا بالنسبة الى لغة التساج الانجليزية وكاصناف لهجات العامية بفرنسة بالنسبة الى الاسلوب العالي ، على ان الفرنسية ، على تقدير التسليم ان الفرنسيين جميعا يتحدثون بلهجة واحدة ، لغة مكتوبة لا يجاء بها في اساليب الحديث وانما يحتفظ بها للتعبير الرفيع ليس غير .

هذا وعسى اللغة المثقفة الوسط الشبيهة بالفصحى الدائرة بيننا الآن ان تكون مما يشجعنا حقا على التماس ان نجعل الفصحى هي نفسها لغة المستقبل المشتركة بين سائر اقطار العربية على منهج حي منظور اصيل في كلا بابي البيان المكتوب والمتحدث به . ذلك بان اللغة المثقفة انما هي محاولات تقرب متعمد بين كل عامية على حدتها وبين اللغة العربية في مجال الجد ثم بين مثقفي الاقطار العربية فيما بينهم . ومتى زادت موسوعة المثقفين من ذخيرة اللغة القديمة ودربوا باساليب نحوها وبلاغتها وحرصوا على التبادل الفكري ارتفع مستوى هذه اللغة الوسط حتى يجاوز مشابهة الفصحى الى محض الصيرورة اليها واللذان فيها .

وللهجات العامية ههنا مهمة عسى ان يضطلعن بها على وجه بناء عظيم النفع . وذلك انهن في طابعهن البدوي الخالص يحتفظن بمشابه كثيرة من معادن البلاغة العربية الاولى وروحها الذي ندعوه الجزالة . ولعل الادباء والبلغاء المعاصرين في الامة العربية يحسنون صنعا لو قد حرصوا حقا على تتبع هذه الجزالة كل في لهجته العامية الصحيحة البدوية - وقل اقليم عربي يغلو من ذلك - ونقل معادن اصلتها الى التعبير ولا اعني بهذا نقل الفاظ من اللهجات العامية باعيانها ولا عبارات باعيانها ولكن تقمص روح البدوي العالي الصحيح بمصدق قلب وبلا ادعاء وبث انفاس اساليبه في الاساليب الفصاح . فان ذلك مما يعين ان شاء الله على تجديد حيوية اللغة العربية . ومتى انضاف اليه الجد في درس النحو والتعمق في متن اللغة نفسه مع جهها والايهان بها والعمد الصالح الى زيادة مادتها بالاخذ والاقتباس من اللغات المعاصرة اخذا شريفا حرا مرفوع الرأس لا يلبسه ادنى استغناء محاكاة وخنوع تقليد نشأت في لغتنا باذن الله نهضة خلاقة تقود الى تطور بطولي جديد تفتتح معه آفاق طور حضاري جديد . وعسى ان ننيه في هذا المقام الى ما قد يرومه بعض ادبائنا المعاصرين من التماس الرواج بين طبقات عوام المدن بنوع مبسط من عبارات الجرائد واوشكت دوافع الكسب التجاري التي تصاحبها احيانا دوافع الكسب السياسي وطلب الشهرة وجنون طلب الانتماء الى تيار العصر ان تودي بالبيان العربي الناصع الذي ينبغي ان تبني عليه ثقافة القومية العربية في المستقبل .

عبد الله الطيب

عميد كلية الآداب بجامعة الخرطوم

وقد أحوج وجود اصناف العامية مع اللسان الفصيح الى مزيد من العناية باللسان الفصيح واتقان دراسات نحوه وصرفه وأقيسته . ثم ان القوم قد أحسوا بنوع من حدس الفريضة انه لا بد لبقاء الحيوية في اللسان الحضاري الفصيح من تزويده باستمرار بنفس فطري مستمد من روح بداوته الاولى . فالتمس ذلك طوال ايام بني امية في الرجز الفح كارجيز المجاج ورؤية التي كانت توشك ان تنبعث من اثناء الفاظها ذرات رمال بيرين والد هنا . ثم ضعفت الاريحية الى الرجز بضعف ملكات اهل الحضرة على ان طلب اصول اللغة العجبة في البادية ظل معمولا به الى اواخر القرن الرابع .

ثم ان اللغة الفصحى ادركها ما ادرك حضارتها من عوامس الضعف وآل امر العلي كنه الى اكناف الدين . وقل التداول بالاسلوب النحوي بين طبقات غير الفقهاء . وكان أكثر رجالات الدول من العجم وفشت الامة . وانتشر التعامل بالعامية في اقليم العربية . ولكنهم لم يرم قط ان تسمو الى أوج آفاق البيان التي عند الفصحى . بل جارتها وبارتها في حدود ضيقة . فكتب بعضهم بها مقامات وحكايات . ونظمت فيها اصناف اشعار . وكثيرا ما عمد العلماء انفسهم الى التأليف المنظوم بالعامية ليقرّبوا مادة الدين من الناس .

ولعله يصح ان نطلق على ما بعد سقوط بغداد الى اوائل عصرنا هذا الحديث اسم الطور الديني في تاريخ اللغة العربية وطابعه اقليمية الآداب العامية وضعف التأليف بالفصحى الا ما خطته بعض اقلام المتصوفة - والفقهاء .

هذا وقد بدأت النهضة الحديثة في آداب اللغة العربية بداية حسنة واعدة امثال البارودي واحمد شوقي ومعاصريهما في مصر وغيرها . الا ان هذه النهضة لم يتح لها البقاء لاسباب من اهمها مصادمتها غزوة الاستعمار ، فهذه عدت الى الالتواء بمنهج التعليم في بلاد العربية الى الترفيف في لغات الفرنجة مكان العربية الفصحى وقد قومت اول الامر ثم كان لها من بعد انتصار مؤسف .

هذا وقد عمدت بلاد العربية الثورة على الاستعمار المصاحبها نوع اعجاب بحضارته وتقدمه . ومع الانتصار الذي حققته هذه الثورة من حيث اوضاع التحرر السياسي ظل يحيط بها ثقل مضم من الخنوع الحضاري لا بد من التخلص منه على وجه قاطع وبلا ادنى تردد ان كنا نريد لانفسنا حرية حقا وانتصارا ولا ارى الا ان اللغة العربية الفصحى هي مفتاح ذلك الانتصار لما تشتمل عليه من معاني الاصل المكتنة في روح جزالتها البدوية القديمة النافرة من كل قيد وخنوع ، ثم لما لها من القدرة الخارقة على استيعاب العلوم والحضارات . وما قويت عليه في الماضي ان يعجزها في المستقبل القريب ان شاء الله .

واحسب اننا الآن نجتاز مرحلة خطيرة من مراحل النهضة . وينبغي ان نستبعد منذ الآن فكرة التعامل البياني فيما بيننا باللهجات العامية لانها اولا محلية اقليمية رصيت لانفسها منذ دهر قديم بالوضع الثاني بالنسبة الى الوضع الفصحى الشريف ، فلعلها ان تارت على هذا الوضع ألا تكون ثورتها الا ضرا من ثورات الرقيق التي تستخدم قليلا ثم تبوح الى ارتكاس ابدي سقيم . ثم انها حين كتب بهسا وتطلعت الى أوج التعبير الادبي الرفيع خضعت خضوعا مزييا للزخرف وغلّت في تقليد بلاغة الاساليب الفصحى حتى في ما كان يشوبه الضعف والانحلال . ثم اصف الى هذا ان اللغات العامية متفاوتة متباينة مختلفة قايتها اصلح للتعميم وعلى ايها اساس ، ثم على تقدير الاتفاق بيننا على ايها ناخذ به ، ان نجد في تعميمه من عناء حمله على الناس شيئا كثيرا مما يوجد في تعليم اللغات الغرائب والتعود لغير اصحابها عليها ؟